الفصل الأول

أمـا قبــل

- هل هذه هى الحضارة الإسلامية
- هل هذه هى الحضارة

obeikandl.com

obeikandl.com

هل هذه هي الحضارة الإسلامية ؟

١- السلة :

- الزمان : إحدى أمسيات شهر فبراير .
- المكان : قاعة الندوات والمحاضرات الكبرى بمسجد النور في العباسية .
- الموضوع : لقاء الثقافات في الحضارة الإسلامية ضمن محاضرات الموسم الثقافى بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
- الواقعة : بدأ السيد المحاضر فأفاض في بيان مدى تفتح الحضارة الإسلامية وأنها خالية من العقد ، وكيف أنها لم تنغلق ولم تخاصم الثقافات والحضارات التى كانت سائدة عصر ظهور الإسلام .

وإلى هنا والكلام بين بين ، يشتمُّ منه من له أدنى فهم وإدراك لبواطن الأمور أن هذه توطئة معتادة يمهد بها المحاضر طريقه فى أذهان الحاضرين ليصل بهم إلى أنه كما أخذ الإسلام في القرون الأولى ، خير القرون ، فلا حرج أن نأخذ نحن من الثقافات والحضارات الحديثة والمعاصرة ، ولو شئنا الدقة من الحضارة الغربية ، اليهودية المسيحية ، تحديداً التى هو ربيب إحدى جامعاتها ، فمفهوم من السياق ومن الأمثلة أنه لا يطالب المسلم المعاصر أن ينظر إلى اليابان مثلاً أو أن ينفتح على حضارة الصين أو جنوب شرق آسيا .

فالمحاضر اللوذعي يتحدث عن الحضارات وعينه وعقله وكلماته كلها تتوحد وتلتقى عند نقطة واحدة لا تبارحها ولا ترى الحضارة فى غيرها ، ألا وهى الغرب .

والكلام ، كما قلنا ، بين بين ، يشتمُّ منه السامع رائحة الآفة السارية في عقل كل المستغربين ، إلا أنه لا يستطيع أن يضع يده على شيء يمسكه على السيد المتحدث ويحاسبه عليه .

الحمد لله ، بسيطة !

ولكن لكى يصل المحاضر إلى غرضه ، وهو أن يقنع الأئمة وطلاب الأزهر المحشودين حشداً لسماعه ، لم يكن له بد من المرور على جثة حضارة الإسلام أولاً .

ولأن السيد المحاضر فى مسجد وجاء بدعوة من المجلس الأعلى للشئون الإسلامية عدل عن طعن الحضارة الإسلامية وتمزيقها بالخناجر ، كما يفعل آخرون ، وربما كما يفعل هو في أماكن أخرى ، إلى منهج : « إن لله جنوداً فى العسل » ليميتها سعيدة هانئة راضية هادئة أمام أبنائها المطلوب إعادة برمجتهم .

بدأ المحاضر بالتفتح ، ثم دلف منه إلى أن المسلمين الأوائل لم يستنكفوا أن يأخذوا بالمظاهر المختلفة ، أفكاراً وعلوماً وكل ما وقعوا عليه ، من الأمم المجاورة لهم ، فأخذوا عن الفرس كذا ومن الروم كذا ومن الهند كذا ، وبذلك أقاموا الحضارة الإسلامية وشادوها .

باختصار مبين : الحضارة الإسلامية مجموعة من الرقع المستعارة والمنتقاة والتى شادها أصحابها بطريقة القص واللصق .

ثم وصل المحاضر إلى النتيجة التى أرادها ، والتي ظل يلف ويدور من أجل الوصول إليها ، والتي فتحنا المندل وعرفناها من أول سطر في محاضرته .

وأحس كاتب هذه السطور بشيء من الضيق والنفور من هذا الكلام الذي يقال في المسجد ، رمز الإسلام وحضارته .

ولكنه عاد فقال : لا بأس ، الرجل يريدنا أن نكون أتباعاً لحضارة الغرب ، وفي حضارة الغرب يقول من شاء ما شاء ، ومن لا يعجبه تفتح له الأبواب ليرد هو أيضاً كيف شاء .

قلت : فلنجرب .

وكتبت ورقة إلى السيد المحاضر قلت له فيها : إن هذه المحاضرة الطويلة العريضة لم تزد على أن جعلت الإسلام وحضارته سلة جمع فيها أصحابها كل ما وجدوه في طريقهم من هنا ومن هناك ، فهل هذه هى الحضارة الإسلامية ؟ وهل هذه تكون حضارة أصلاً ؟

ماذا فعل الإسلام ، ما الذي أحدثه وغيَّره ، هل كان أخذ المسلمين الأوائل لهذه المظاهر والوسائل جمعاً سلبيًّا ، أين إذاً الفاعلية والصياغة الإسلامية للأشياء التي أعادت تركيبها في منظومتها الخاصة وأعطتها معاني لم تكن لها من قبل؟

ما هو منهج الأخذ وضوابطه ، وهل تستوي فيه الأفكار والعقائد مع الآلات والوسائل ، هل الحضارة الإسلامية ذاتية استفادت من تجارب غيرها أم هى حضارة مسروقة قامت على ما نهبته من الحضارات في البلاد التى فتحها المسلمون كما يقول عتاة المستشرقين ولا يطمع أحدهم ولا يصل خياله إلى أن يقول هذا في مسجد وأمام حشد محشود من أهل الأزهر؟

وطالبت السيد المحاضر أن يعيد التوازن إلى محاضرته ببيان وجوه تفرد الإسلام في حضارته ، ومنهجه في الأخذ ، وضوابطه ، وأثره فيما أخذ ، وكيف أعاد صياغته وصهره داخل نظامه العقائدي والفكري ومنظومته للألوهية والإنسان والكون .

ولم يخيب الجالسون على المنصة ظني ولا علمي بالحضارة الغربية وبذيولها فى الشرق : تفضل السيد الأول مشكوراً فحجب الورقة عن السيد الثاني حتى لا يصل السؤال إلى السيد الثالث !

وزاد الطين بلة أن قام السيد الأول والسيد الثاني باستكمال عملية غسيل المخ التى دشنها السيد الثالث المحاضر .

وازداد ضيقي ونفوري .

وبعد أن انتهت المحاضرة خرجت لصلاة العشاء ، فسكب الله عز وجل عليّ سكينة وأراني في المصيبة نعمة هدأت بها نفسي وسكن وجيب قلبي ووجده ، وأنا أقبل يدي بطناً لظهر وأهمس : اللهم لك الحمد ، قضيت فينا بقضائك فكان طاقم المنصة ألمانيًا ، ولطفت بنا فيه أن لم يكن أمريكيًا أو يهوديًا !

وكل شيء في هذه الأيام جائز !

٢- ساعى البريد :

أستاذ مشهور للفلسفة ، نموذج فج لمدرسة يتناثر أساتذتها وتلاميذها في الجامعات ومراكز البحوث ووسائل الإعلام .

الحضارة الإسلامية عنده ، في كتبه وفي ما يكتبه في الصحف السيارة ، لها دور عظيم وقامت بمهمة حضارية في التاريخ جليلة ، ألا وهي أنها ترجمت علوم اليونان وفلسفاتهم وحافظت على هذا التراث العقلي اليوناني إلى أن انتهت دورتها الحضارية ، فقامت بتسليم الأمانة بكل أمانة وإخلاص إلى الغرب ، قائد المسيرة .

فلأن الأستاذ أمريكاني الهوى مع أنه عراقي اللقب ، الحضارة الإسلامية عنده ليست سوى جملة اعتراضية بين اليونان وأوروبا ، أو بين الغرب والغرب ، أو هي في أحسن الأحوال كساعي البريد الذي تسلم الطرد مقفلاً ، فكانت مهمته الجليلة هي المحافظة عليه وحمايته حتى يصل إلى أصحابه .

ولا يخلو الأمر من لعن التخلف والرجعية والتمسك بالنصوص وإهدار العقل ، فالأستاذ يحب الغرب ويدين له بالولاء والطاعة ، أو هو غربي في لسان عربي ، ولذلك لا يرى في الإسلام إسهاماً في الحضارة ولا شيئاً يمت إليها إلا ما كان ذا صلة بالغرب وأفكاره وفلسفته وعقلانيته .

وكل ما عدا ذلك فلا قيمة له ، وهو ليس من الحضارة أصلاً ولا يصح أن يذكر في سياقها ، هذا إن لم يكن من معوقات الحضارة وعوامل هدمها .

٣- مرحلة طبيعية من مراحل تطور التاريخ العربى :

أستاذ للتاريخ ودبلوماسي عربي ، نموذج لمن يريدون قولبة الإسلام في قوالبهم ويجعلونه مطية لرؤاهم الفكرية ونظرتهم الأيديولوجية .

الأستاذ يطير على جناحي طائر ، فيمجد الإسلام والقفزة والنقلة الكبرى التي أحدثها في ملحمة التاريخ العربى!

وكما لم يجد مدله الغرب في الإسلام وحضارته شيئاً ذا بال يستحق أن يسجل باسمه في تاريخ الحضارة إلا ما مسته روح الغرب المقدس ، لا يجد المؤرخ الدبلوماسي القومي في الإسلام إلا ما منحته له العروبة ورفدته به حفريات البوائد .

ولأن الغرض ، كما يقولون ، مرض ، صار الإسلام وحضارته مجرد مرحلة أو خطوة من مراحل ملحمة التاريخ العربى ، سبقتها مراحل أو أركان متفرقة للحضارة ، حضارة فى اليمن ، وحضارة ثمود حول تيماء ومدين ، والمثلث الحضاري الضخم الممتد من أقصى جنوب الشام وأعلى شمال العراق ، و . . . و . . . ونهضة الجاهلية المظلومة!!

ومن مجموع هذه الحضارات وعناصرها المتفاعلة تكاملت في نهاية العصر الجاهلي عوامل ظهور عقيدة الإسلام .

باختصار ، كان الإسلام : « **مرحلة حضارية طبيعية وتطوراً تلقائيًّا في سياق التطور الحضاري العربي وتجمعت فيه حصيلة الحضارات العربية السابقة وتراثاتها الدهرية وتطلعاتها** »[1].

---

(١) دكتور شاكر مصطفى ، مع التاريخ على جناحي طائر ، مجلة العربى ، شعبان ١٤١٧هـ/ يناير ١٩٩٧م .

ولأن أحمد مثل الحاج أحمد ، وكله عند العرب صابون ، ليس من المهم أن يفهم أحد كيف يكون التوحيد الخالص خطوة في خط سير الوثنية وعبادة عشرات الأصنام ، ومن غير الوارد طبعاً أن يتساءل أحد : كيف تنتج النفسية صاحبة الرسالة المملوءة بالعزم والتصميم والبسالة في قول ربعي بن عامر لقائد الفرس حين سأله وقد جاءه مبعوثاً من سعد بن أبى وقاص : من أنتم وماذا تريدون؟ : «**نحن قوم ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة**».

ليس لأحد أن يسأل : كيف تكون هذه النفسية والعقلية النتاج الطبيعي للعربي التائه في الزمان لا يعرف من أين أتى ، وإلى أين هو ذاهب ، ولماذا هو وجد ، فيخاطب الفرس والناقة والجبل والوادي والفلاة فلا يجد ردًّا على سؤاله إلا رجع خواء نفسه وصدى صوته :

فوقفت أسألها وكيف سؤالنا صمًّا خوالد ما يبين كلامها

وبهذا المنهج القائم على «الفتاكة» الذي جعل الرسالة السماوية خطوة في مسيرة أرضية ، فلا عجب أن يصير القرآن خطوة تطورية طبيعية ولدت من رحم شعر الجاهلية المظلومة ، وأن يكون محمد رسول الله هو النتاج الفكري لزيد بن عمرو بن نفيل وأمية بن أبى الصلت ، وألا تكون الحضارة الإسلامية التي تكونت من بين دفتي المصحف سوى الإنجاز الطبيعي لرؤى وخطط الحزب الهاشمي كما قال تحفة دهره ، القمنى .

فنحن في عصر استباحة الإسلام . وهذا شيء طبيعي في هذه المرحلة التاريخية المجيدة ، إذ لابد أن يكون الإسلام مستباحاً فى العصر الذي يبول في أفواه من يستبيحونه اليهود !

* * *

هل هذه هى الحضارة ؟

١- فى مباراة لكرة القدم :

لاعب يخرج وآخر يدخل مكانه ، ويرفع الحكم المساعد لوحة تضىء الكترونيًا بأرقام اللاعبين بدلاً من اللافتات القديمة المكتوب عليها الأرقام بالبنط العريض ، وصوت المذيع الناعم يصف المشهد ثم يعلق بقوله : المسؤولون عندنا لا يتأخرون عن إحضار أي جديد يظهر في دنيا الملاعب .

ثم فجأة يأخذ المذيع الحماس وترتفع نبرة صوته وتزداد نعومته هاتفاً : الحقيقة منتهى الحضارة ، أقول إيه ، أوروبا ؟!

٢- مشهد معتاد مألوف ومتكرر :

المكان : قاعة المحاضرات في أي كلية طب ، أو مؤتمر طبي في أي فندق .

المشهد : الأستاذ يتكلم عن الدراسات والبحوث في الموضوع الذي تدور حوله محاضرته أو كلمته على النحو التالي : ووجدوا أنه . . ولما بحثوا في هذه النقطة . . وما زالت هذه المشكلة لا يعرفون لها تفسيراً . . . وهذه الدراسة سوف تنتهي في شهر كذا المقبل وسوف نطلب نتائجها عندما ينتهون منها . . . وهم يخططون لعمل كذا في المستقبل .

ومن الفكاهات في قاعات المحاضرات : وعلامة هذا المرض أن البول فيه يكون شبيهاً بالبورت واين Port Wine !

وربما يوجد بعض السذج من الطلاب ممن لم تدركهم الحضارة فلا يعرف ما هو هذا البورت واين ، وربما تتمادى السذاجة بأحدهم فيسأل : ما هو هذا البورت الواين الذي لابد أن أعرفه لكي أعرف صفة البول في هذه الحالة المرضية ؟

فإذا كان الأستاذ من القاهرة أو الإسكندرية وعلى القدر المطلوب من الحضارة فسوف يصف له البورت واين ، وإذا كان من الجامعات الإقليمية أو من أصول ريفية فإما أن يدير دفة الموضوع إلى شيء آخر أو يجيب بصراحة : والله يابني أنا كمان مش عارف ، هم كاتبينها كده !

٣- مقتطفات سريعة من دفتر التخلف الحضاري والعقلي :

أ- مصر تدخل نادي الفضاء العالمي وعصر الأقمار الصناعية :

التفاصيل :

- قامت بتصنيع القمر الصناعي شركة ماترا ماركوني .
- وقامت بإطلاقه على الصاروخ إيريان شركة إيريان سبيس .
- وأطلقته من قاعدة كورو الفرنسية في جيانا .

إذًا أين دور مصر الذي دخلت به عصر الفضاء؟

لا تتعجل ، ها هو :

ذهب وفد إعلامي كبير على رأسه وزير الإعلام شخصيًّا إلى قاعدة كورو واطمأن على مراحل تجهيز وإعداد القمر ، وجلس لمشاهدة عملية الإطلاق ، وصفق بحرارة وتبادل التهاني مع أعضاء الوفد حين انفصل القمر عن الصاروخ على شاشة الكمبيوتر ، تماماً كما صفق وتبادل التهاني الجالسون للمشاهدة أمام التلفاز في كفر البلاص !

- التتمة : القمر الصناعي الذي دخلت به مصر عصر الفضاء ، النايل سات ، هو قمر اتصالات ذو وظيفة إعلامية ، وقد تأكدت إسرائيل قبل إطلاق القمر من خلوه من أجهزة التجسس !

ب ـ الدكتور أحمد زويل يحصل على جائزة نوبل في الكيمياء :

من التعليقات على الخبر :

- العالم المصري رفع اسم مصر عالياً ، مقبولة !

obeikandi.com

- أحد المحررين يصف الاكتشاف والجائزة بأنه النصر العلمي الذي حققه لمصر ابن لها!
- اكتشاف دكتور زويل وتكريمه إنجاز حضاري جديد لمصر ودليل على إسهامها الدائم في الحضارة العالمية !

يُفهم مما كُتِبَ عن إنجاز دكتور أحمد زويل ، وهو اكتشافه وقدرته على تسجيل وحدة جديدة للزمن قدرها واحد على مليون من البليون من الثانية (الفمتو ثانية) باستخدام كاميرا تعمل بأشعة الليزر ، يُفهم منه أنه سيؤدي إلى القدرة على تسجيل ومتابعة العمليات الحيوية داخل الخلايا والتفاعلات الكيميائية ، وثورة في فهم قوانين الطبيعة ، وبالطبع إلى ثورة في التكنولوجيا وقفزة ضخمة فى الصناعات المدنية والعسكرية .

دكتور أحمد زويل يستحق الجائزة ، لا شك ، هو علامة فى تاريخ العلم ، نعم ، له أن يتيه هو بذلك ، حقه .

لكن هذا الإنجاز الضخم والفائدة الكبرى والقفزة المدنية والعسكرية هل هي لمصر أم عليها ولأمريكا واليهود ؟!

الأمر بصورة طريفة مثل أن يحصل لاعب كرة قدم مصري على الجنسية البرازيلية ، ثم يشارك في كأس العالم وتفوز البرازيل .

ولأن لاعبنا البرازيلي الآن أحرز هدفاً في المباراة النهائية تخرج الصحف والإعلام علينا بأن هذا نصر كبير للمنتخب المصري لكرة القدم .

وتكون الطرفة مأساة حين يكون منتخب مصر هو أحد ضحايا المنتخب البرازيلي في طريقه إلى البطولة .

- التتمة : قام الرئيس الأمريكي باستقبال دكتور أحمد زويل وتكريمه في البيت الأبيض اتباعاً للتقليد الأمريكي الذي يقضي باستقبال الرئيس الأمريكي وتكريمه لمن يحصلون على جائزة نوبل من المواطنين الأمريكيين !!

* * *